فيليبو مارينتى

سحر مصر

ترجمة: مها محمد عبد العزيز

مراجعة: سهيمة سليم صالح

المركز القومى للترجمة

Istituto Italiano di Cultura

2480



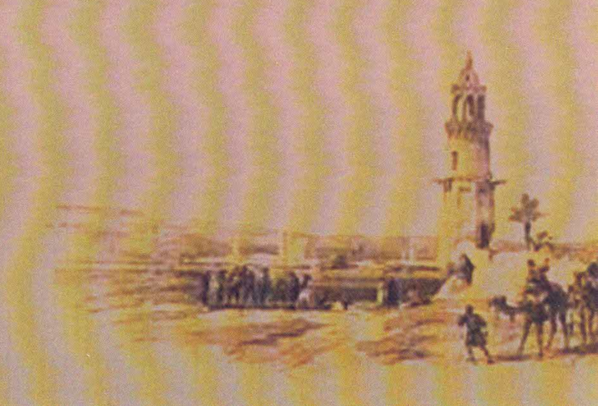


بعد مرور سنوات وسنوات من الحيوية والإبداع عُدت إلى نقطة ثابتة من التأمل: إلى مسقط رأسى مصر.

فمنذ زمن كانت تنادينى سماها المُكتظة بشذرات الذهب الناعمة وتلاحُق كثبانها الصفراء الساكنة وأهراماتها الشامخة المُثلثة الآمرة ونخيلها الوديع الذى يبارك أباه النيل الخصب الذى يجرى فى أخدود تربة سوداء وكلأ أخضر.

كان اسم السفينة "حلوان" وتمايلها يستدعى إيقاع الرمال المُبحر الخافت، وأجنحة طواحين "الماكس" المنسوجة الضخمة التى كانت تقى ألعاب طفولتى من حرارة الشمس.

وباتت حرارة البحر والجو معتدلة عذبة كما لو اختلجت فيهما وجنات الصبايا الدافئة. تمزقت مشاعرى، وصرتُ الجرح الغائر الذى يفكر فى إغواء قوس الأفق البحرى بالشذرات الحارة.



سحر مصر

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2480
- سحر مصر
- فيليبو مارينتى
- مها محمد عبد العزيز
- سهيمة سليم صالح
- اللغة: الإيطالية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:

Il fascino dell'Egitto

Filippo Tommaso Marinetti

Questa opera e'stata pubblicata con il contributo del Ministero degli esteri Italiano.

تم نشر هذا العمل بمساهمة من وزارة الخارجية الإيطالية.





شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

سحر مصر

تأليف : فيليبو مارينتى

ترجمة : مها محمد عبد العزيز

مراجعة : سهيمة سليم صالح



2016

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

سحر مصر / مراجعة : سهيمة سليم صالح

ترجمة : مها محمد عبد العزيز

القاهرة : المركز القومى للترجمة، ٢٠١٦

٦٤ ص ؛ ٢٤ سم

١- مصر - تاريخ

(أ) صالح ، سهيمة سليم (مراجع)

(ب) عبد العزيز، مها محمد (مترجم)

(ج) العنوان ٩٦٢

رقم الإيداع ٥٠٤٣ / ٢٠١٥

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 -92-0153-5

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

(١)

آخر شذرات الحنين لمشاعر مستقبلية

بعد مرور سنوات وسنوات من الحيوية والإبداع عُدت إلى نقطة ثابتة من التأمل: إلى مسقط رأسى مصر.

فمنذ زمن كانت تنادينى سماؤها المُكتظة بشذرات الذهب الناعمة وتلاحُق كثبانها الصفراء الساكنة وأهراماتها الشامخة المُثلثة الآمرة ونخيلها الوديع الذى يبارك أباه النيل الخصب الذى يجرى فى أخدود تربة سوداء وكلأ أخضر.

كان اسم السفينة "حلوان" وتمايلها يستدعى إيقاع الرمال المُبحر الخافت، وأجنحة طواحين "الماكس" المنسوجة الضخمة التى كانت تقى ألعاب طفولتى من حرارة الشمس.

وباتت حرارة البحر والجو معتدلة عذبة كما لو اختلجت فيها وجنات الصبايا الدافئة. تمزقت مشاعرى، وصرتُ الجرح الغائر الذى يفكر فى إغواء قوس الأفق البحرى بالشذرات الحارة.

ومن آن لآخر كنت أقبض برفق على شريط الذكريات الذى ينبض بالحياة فى جسدى حتى لا أمزقه. كانت هناك رغبة شديدة فى الانطلاق غير معهودة أفقدت ذكرياتى صوابها. وسرعان ما تحركت تلك الذكرى المُمتدة الوردية لمدرسة "اليسوعيون الفرنسيون" وفنائها الهائل يحرسه النخيل، وتشابك مدوٍ لسيقان التلاميذ العارية السريعة، وياقاتهم الشبيهة بزى رجال البحرية وقطع من الكرات كانت تغوص فى فردوس مُدغل أخضر أشجاره من الدُلب والمنغوليا والخيزران.

ها هو احتفال "القلب المقدس" الذى يفوح عطره ويعلو رنينه يُبعث من جديد. كان المذبح يعج بزهور الياسمين ويختبئ بين أوراق شجرة "الباوباب"[1] التى تتساقط بتلات الورود من فوق جذعها.

وفى عصر يوم حارٍ من أيام شهر مايو آثار لهب الشموع وطنين المباخر الوامض ومسوح الرهبان القرمزية المُنطلقة نشوة طيور القمُر التى اتخذت من فوق النخيل العالى عشًا لها.

وكان همس المياه الشهوانى يمتزج بأحاسيسنا الطفولية إلى أن يسبب لنا المتعة والألم.

كان شريط الذكريات شديد الطول و المُوشى بدقةٍ يحفل بألعابنا العنيفة ... لعبة الحرب التى تتكون من جيشين من التلاميذ المُسلحين بدرع من الحديد الزهر على شكل صليب وطلقاتٍ دموية لكراتٍ من الجلد المحشو، واليسوعيين المرحين البالغين زُهاء ثلاثين عاما يقوبون الهجمات والهجمات المضادة والمطاردات والمعارك الجامحة، وهم يتصببون عرقًا، أكمامهم مطوية ومسوحهم السوداء ترتفع على سيقانهم الطليقة.

(١) شجر ضخم ينبت فى البلاد الحارة.

(٢)

معبد رجال البحرية الإنجليزية العائم

انجدل فى الوقت نفسه أمام عيون أحلامى خيط آخر من خيوط الحنين إلى الأقارب، إنها سنارة أخى "ليونه" مغمورةً فى المياه المُثقلة بدياجير ظلام ميناء الإسكندرية أسفل حزمة أشعة غارقة بيضاء من شعاع مغيب الشمس. كان أخى يصطاد وأنا كنت أحلم وأنا كاره للصيد والخادم السودانى بجلبابه الأبيض يُعد الطُعم.

كان قاربنا الصغير يصطدم بين الحين والحين بعارضة معبد رجال البحرية العائم رباعية الشكل والمائل لونها إلى الرمادى، ولم تكشف لنا البتة جفون هؤلاء البحارة المُتراخية – فى كثير من العصارى – عما إذا كانوا ملاحين أم نُساكًا.

شريحة أخرى من ذكرياتى تحمل رائحة لاذعة معسولة وفاسدة لأشجار "الطلح" التى كانت تفوح من أسياخ الشى فى حديقة "أنطونيادس" لتثير مياه ترعة "المحمودية" الطاهرة الضريرة، وجواميسها سوداء اللون أعلى قمة حظائر البقر وروث جمل.

وعلى بُعد عشرة أميال من الإسكندرية، كان المركب يتهادى الهوينى، وكان تموج البحر الزئبقى المائل إلى الزُرقة يصعد ويهبط فى ميزان حرارة النافذة الصغيرة.

واكتسى الأفق البحرى فى سحر رائع بالنخيل الذى تزينت به مقدمة مركبنا عند نزوله. وعند صعوده كان طرفه يختفى عن يسار الأدخنة التى كانت تتسلق الغروب المُلبد بالغيوم. ومن جهة اليمين، كان البحر يمنح كل حين مقدمة المركب كثبانه الرملية رمادية اللون، والتى كانت أشعة الشمس المتساقطة من أسفل فتحات السُحب تضفى عليها بياضًا وعذوبة.

(٣)

الملك فؤاد

وبعد ساعة وفى حديقة فيلا "أمبرون" المُظلمة أصهرت روحى مع شجرة "فيكاس" اللدِنة الكبيرة التى تغرس أوراقها الباكية فى الأرض ذكرياتٍ خضراء، تتوق لأن تنبت مرة أخرى ذكرياتٍ جديدة خضراء ظاهرة جليّة.

فى اليوم التالى وبنفس الإيقاع الهادئ الثابت و فى البلاط الملكى بالقاهرة أطلعنى الملك "فؤاد" على تطور مصر السريع المُنظم.

وبينما كنت أنصت إليه كنت أفكر فى القيمة الإسلامية للطربوش الذى ألغاه "كمال" باشا فى "تركيا" باعتباره مولدا لحالات نفسية سلفية.

من بين كل أغطية الرأس فإن الطربوش هو أقلهم احتمالاً من حيث الاتسام بخصائص قتالية أو ملكية. تنوب خطوط طربوش الملك "فؤاد" المنحدرة فى انحناءات وجناته الحسية لوجه بيضاوى مثالى.

ويبتسم الفم المُتعرج أسفل شوارب مفتولة إلى أعلى ويذكرنا بالسلاطين على صهوة الخيل أسفل قوسىّ السيف والقمر.

ووقف يفتخر بحركات مالك أفدنته، ولكن بدون المظلة المميزة المصنوعة من الحرير الرمادى بالمدينة البحرية الجديدة التى تضاعفت أحياؤها المُتلألئة بالمرمر والبللور والكهرباء النيون حتى غابة النخيل فى منطقة "فيكتوريا"، وبحى "الماكس" الذى حطم طواحين الرياح واستبدلها بالبخار للطحن، وبالبحيرات المستصلحة، وبالأسواق الذاخرة بالأقمشة والمجوهرات ومحلات الحلويات التى أزالتها السرعة الميكانيكية

وباللامبالاة المُتناهية للعرب راكبى الترام وكأنه اختطفهم من البحر، وبالتدافع العنيد للروائح والألوان والمذاق والعبق والعفن، والتى تستبسل فى الدفاع عن نفسها ضد الحداثة الأوربية فى سوق القاهرة.

كنتُ أقول لنفسى: لن أعود أتنوق بشراهة سنوات عمرى الخمس عشرة مِحارى غض اللب الطازج بين الكبائن الزرقاء الخشبية المائلة لمبنى حمامات الرمل الصغير الذى يرتجف مع كل موجة على الأوتاد الحديدية. لن تشاهد عيناى ولن يشم أنفى بعد ذلك البحر البلورى الأخضر الجميل شديد الملوحة، حيث قذف فيه أبى وبوحشية جسدى النحيل الطفولى حتى يعلمنى ازدراء أطواق النجاة.

(٤)

موسيقى الموسيقى الشرقية

وفجأة تغيّرت نبرات صوت الملك "فؤاد"، ربما استشعر الصراع المأساوى الذى كان يدور فى عروقى بين ذلك الماضى الذى ينتحب والمستقبل العظيم الذى كان يخنقه. استعادت حركات صاحب الجلالة الرشيقة وصوته رحابة الوقار المسلم؛ لتجمع كل الحنين المُتناثر.

حضرتُ اليوم حفلاً موسيقيا مُمتعًا. وفى الشتاء القادم سوف أُنظِّم هنا فى القاهرة أول مؤتمرٍ كبيرٍ للموسيقى العربية وسوف أترأسه بنفسى. سندعو كل مؤلفى الموسيقى وكل الموسيقيين المتجولين و مرتجلى الأناشيد الإسلامية وبصحبتهم آلاتهم. سوف نناقش الطريقة المُثلى لتطوير الإبداع الموسيقى لعرقنا العربى، مع الحفاظ على التقاليد الفنية القديمة بالإضافة إلى خلق أصول إبداعية جديدة.

بينما كان الملك "فؤاد" يتحدث، كانت يداه تبحثان برقة أنثوية فى الهواء عن أصداء مفقودة لأغانى الأيام الخوالى الشجية وعن أصوات المؤذنين الشاردة وحُداة الإبل والرُعاة والبحّارة. كان بالتأكيد يريد أن يصهرهم جميعا فى نسيج مُتناغم على أن يكون فنيا وسياسيا معًا. ألم يكن من الممكن عن طريق الموسيقى العربية الموحية إغراء وسلب ألباب أوروبا الطامعة المُسلحة القاسية التى كانت تنعطف بولع شديد على مصر الغنية المُتأملة؟

من المؤكد أن لازمة غنائية مصرية عذبة تنطلق كزفرة أولى من ثغر مُغلق، ثم ترتفع من صوت أنفى تعس، ثم تتوقف وتُستأنف عشرين مرة، من المؤكد أنها تستطيع

أن تحرك المشاعر وأخيراً تضع حلا لمشكلة قناة السويس الصعبة المُعقدة والتى يكاد يعرقلها كم أوراق عصبة الأمم الهائل.

على الرغم من اهتمامه اليومى، باعتباره ملكًا حكيمًا، بمكافحة تجارة الكوكايين التى تحاول تخدير قراه الغالية، فهو يحلم أن يكبح جماح طموحات شعبه بالفن، هذا الشعب الذى إن كان قد تخلى عن كل شىء فمن الممكن حاليًا أن يمزق كل شىء بشراسة، وربما بعنف مُدمر.

(٥)

سـرعـات إيـطـاليـة

أضاف الملك "فؤاد":

إن الجالية الإيطالية مُذهلة لذكائها ودأبها وسرعتها!

أثارت هذه الجُملة فجأة في قلبي الحالم ذكرى حياة أبي الصلبة... إنه واحد من أوائل المحامين الذين جاءوا منذ ٦٠ عاما إلى مدينة الإسكندرية وكانت موحلة لا غاز بها ولا مياه صالحة للشرب، وكان يمر بها كل ليلة حاملا المصباح اليدوي لينجز القضايا بالغة التعقيد للباشوات ذوي الكروش الذين كانوا يطلقون عليه "فلفل" لذكائه وعمله وسرعته.

وختم الملك "فؤاد" حديثه قائلاً:

أشعر بحب الابن تجاه القصر الملكي "كازا دي سافويا". كانت الملكة "مارجريت" بمثابة أمٍ حقيقيةٍ لي. أه يا مدينتي الجميلة "تورينو"! تربطني علاقة صداقة وطيدة بوزير خارجيتكم "جراندي"، تلميذ الزعيم موسوليني عن جدارة!

عندئذ، وفي جو الخطاب المُضجر والنخيل والكثبان الرملية والأهرامات والقرى العربية يظهر جليا وبصورة مذهلة مشهد الوطن الفخور الضاحك، شبه الجزيرة المُتلهف للإبحار، الذي دخلته بأكمله الكهرباء بناءً على أوامر الرئيس وبحماس ملاحيها الذين لايكلّون.

استقليت القطار في اليوم التالي للذهاب إلى الإسكندرية مسلحًا بمجاسات الذكريات. أول ذكرى تهشمت بين يدي كلعبة قديمة وهشة هي ذكرى مدرسة

"اليسوعيون الفرنسيون" (القديس فرانسوا كسافيه)، والتى تحولت الآن إلى هيئة حراسة المحافظة!

أسرعت بالسيارة حتى سور حديقة "أنطونيادس" و أنا يحدونى الشغف لأنزع عن نفسى آخر شعور بالحنين. وأخذت أشعة شمس تلك الظهيرة الواهنة لشهر ديسمبر المصرى تحاول وتعيد محاولة مُداعبة جلدى المُستقبلى بمُداعبات غاية فى الرقة. ولكن شجر "طلح" مراهقتى المُتوقد الحسى كان قد اختفى! دخلت إلى منخارى بدلاً منه رائحة قوية من القطران الذى كان يأتى من ناحية عارضة هيكل القارب الذى كان يرزخ تحت ثقل حمولة من القطن. واقتحم مخى هذا القطران من الإرادة والرحلات والأخطار والمرور والمغامرات وأرغمنى على أن أرفع رأسى.

بعيداً عن نخيل الزينة "الكاميروس" فى حديقة "أنطونيادس" الساحرة، جاء أمر عال من النخيل ذى الخصلة المعدنية ليدل طائرة الخدمات البريدية الإيطالية على مسارها بشكل هندسى.

وحلقت الآلة من فوقى وسمعت لها صوتا كطنين النحل الحربى الذى يئن بعناد، أصابت موسيقى ناى الحرب الأسود السماء الزرقاء بجروح، حيث كانت أجنحة الطائرة هى نفسها أيدى الموسيقار المبتورة بعد أن تركته على الأرض وأقلعت.

(٦)

جيش النخيل يجود بصور جديدة

وبعد أن تحدثت إلى الملك "فؤاد" تحدثت إلى النخيل والنيل والدراويش التى تلف حول نفسها رافعة التنورة إلى أعلى، صورة وافية من الناحية الوجدانية والتشكيلية والموسيقية والصوتية.

وقد قام السيد "جراس"، وهو واحد من أولئك الإيطاليين الذين يسيطرون على الشرق بذكائهم الحاد ذى النزعة التبسيطية، بمنحنى السرعة الملائمة حتى أتجنب الحنين المُضجر لتلك الشخصيات اللامعة التى أجريت معهم الحديث.

وفى الحافلة من الإسكندرية إلى القاهرة استعرضت قبائل وشعوبًا وجيوشًا من النخيل تظهر بجذوعها شبه الآدمية والتى تخلو دائما من الطبيعة النباتية وتفرض نفسها كأسياد السهل. تحكمه. فى مجموعات غير منظمة. وكتائب مُسرعة، وحُراس وفلاسفة تخمرهم حالة من العزلة التأملية.

كان هناك أركان حرب من النخيل يقود معركة خفية. ومجموعة أخرى تعبد الشمس وتترقب بجريدها اليابس أمطارًا من الذهب.

كانت تسير فى الأفق كقطعان من الأفيال. وسألت نخلة عجوز مُنحنية من الأعمال الزراعية الشاقة. ولم تجبنى.

وكان قطارى ينزلق على أرض مصر الخصبة المنبسطة الخضراء.

كانت القرى بلونها المائل للأسود والرمادى من أثر الوحل والبقر والقش وروث الجمل المُجفف تحت أشعة الشمس بمثابة قشرتها الخارجية وزوائدها. والجاموس

الداكن هو ثآليلها. وكانت الأرض تبدو وكأنها تسحق كل شيء وتلصقه بصدرها: منازل صغيرة حقيرة وقطارات وسواقٍ ومياهٍ راكدة ومراكب شراعية في مياهٍ بطيئة أسفل سماء مُمتدةٍ وخالية و ربما يستعمرها ذات يوم النيل الناقم بحركة سريعة.

(٧)

خواطر جاموسة

كلص طريد، أخذ القطار يلامس مزارع الموز التى تموج بالزمرد الحى وتنديها حليات من ذهب. وتشهر القنواتُ عالياً أشرعة على شكل أقواس تبدو كالسواطير.

كانت انحناءات الإبل والفلاحين فى انسجام تام مع انحناءات القرى المُتخمة بالسهول.

وامتلأ إيقاع القطار بالتراب المشحم. وهدأت عربة القطار من وثبات قلبى، وعندما تأرجحت أوقعته بين الذباب وداخل نفس رطب لبقرة مُحتظرة تخرج رأسها مثل سلحفاة كبيرة من قوقعة السهل الشاسعة الطينية لتحرس قطيعًا ثملاً من المقابر العربية البيضاء.

قالت الجاموسة وهى تلوك:

"أنا ابنة الأرض السوداء والنيل الرمادى، أبدو وأنا مُسترخية وكأننى كومة من رغام، أنحت فوقه هيئة جسدى فى أثناء نهوضى، وسرعان ما استكمل كل من ظهرى وقرنى الصورة الجانبية للأسطح المنخفضة التى تعج بالقش، والأطفال، والخرق البالية، والماعز الصغير، و قباب الأفران، ومواسير من الفخار دون دخان. أحب السكون الممتد على بُعد خطوات قليلة من القضبان والطريق. لا أرفع خيشومى عند مرور الفلاح الجالس جانبًا فوق الجمل المُتموج، يحدق فى دون أن يرانى، فالهدف المنشود لا يستحق نظرة منه، ولا القرية التى يفوح عبقها قويا خلف ظهره.

لن أتنفس مطلقًا من جديد هواء غنيًا بالجراثيم مثل هوائى! فالرغام المُتبخر هو منشأ الهواء. يضغط على الوجنات كقطعة إسفنج دافئة.. وأخذت الجلاليبُ فضية اللون التى تكنس الطرق السوداء أو خضرة المراعى اللامعة تعطر السماءَ ببخور الأرض الطيبة!.

وفى هذه الأثناء توقدت السماء الزرقاء وظهرت سحب صغيرة متفرقة من الفضة فى توهج مستمر ومُعلقة فوق آلهة غير مرئية. وشعرنا بهاجس المياه، وبقلق الضوء، وببريق الحصى المُتعطش.

(٨)

البحث عن طيور السمان ونساء عربيات بصحبة قواد عربى

"كفر الزيات" ! هذا الاسم ينزعُ بضراوةٍ روحى من واقع عام ألف وتسعمائة وثلاثة وثلاثين ويغمسها فى سنوات عمرى العشرين التى تظهر فيها ألوان السعادة الرقيقة المُبهمة.

منذ ثلاثين عامًا، كانت رائحة الموميـاء تفوح من الظلام عند توقف القطار فى محطة "كفر الزيات"، كان سقيف المحطة الخشبى يتدثر بأشجار الموز ويطل على شاطئ النيل غير المرئى.

كان فى انتظارنا محمد الرجل، قواد الضابط أركان حرب الإنجليزى الذى أوصانى به وبحرارة بالغة سير "وارد"، كان فى انتظارنا ليصحبنا إلى ملتقى الصيد و ... ليمنحنا شرف القرية الشهوانى.

مازلت أراه مُجدداً فى ذاكرتى، كما لو كان شيئًا حدث بالأمس، صاخب مُجامل ينحنى احتراما، ويمد إلينا يده ليحيينا، يقرب أصابعنا برشاقة إلى فمه، ويصدر أوامره فى غطرسة وتكبر للصبيين السوداويين اللذين يحملان المؤن.

لقد فتننا جميعًا منذ اللحظة الأولى ذلك الفتوة الكبير، طليق الحركة ذو الوجه الجذاب بلون الشيكولاتة، وعيناه سوداوان واسعتان، ذكيتان ووديعتان، وأنفه معقوف.

كان محمد يسبقنا بخطى واسعة، وكانت خصلة طربوشه تتراقص وهو يرشدنا إلى الطريق بحركة مهيبة.

كان مظهره نبيلاً إلى حدٍ كبير في جلبابه المُتطاير المصنوع من قماش الكريب الأسود، تعلوه سترة شبه مفتوحة متناسقة من الحرير ذات أقلام أصفر كنارى وأخضر فستقى.

كنا عشرة صيادين مولعين. ثلاثة يونانيين وخمسة إنجليز وإيطاليين، تغمر الجميع الرغبة فى قتل مائة سمانة على الأقل، بعيداً عن الإسكندرية التى أصبحت غير صالحةٍ للسكنى بسبب عيد الأضحى.

ظهرت لنا بادئ ذى بدء أكواخ مكعبة الشكل على جانبى الطريق، أكواخ تكاد تكون مبنية بالكامل من طين النيل المائل للصفرة تحوطها حدائق صغيرة. ثم تبزغ جانبًا عبر الأفق غابات صغيرة من النخيل.

كان فجرا حزينا، مُتعبا غير واهم. وقرية قاتمة اللون يخيم عليها صمت الموت. وفى هدوء ارتسمت السماء بخطوطٍ فضيةٍ مائلة للخضرة. ويظهر وراء الحقول المزروعة رمال مموجة اصطبغت بعذوبة بلون البنفسج مع دعابات القمر الأفل. قمر دافئ رخو بلون الصدأ الأصفر كان يأفل كقطرة ذهبٍ نحو البحر البعيد.

واختنق الطريق بمزارع الموز وشعرنا بنضارة البساتين المعطرة تندى أجسادنا بعذوبة.

كسرت شحوب السماء خيمة بعض البدو ظهرت عن بُعد كخفاش ضخم ذى أجنحةٍ غشائيةٍ تفترش الأرض وتتسمر بها.

لاحظت بفضول الشكل الهندسى العجيب لنسيج الخيمة المُرقع، ولأطرافها البهلوانية الرثة الصدئة التى كانت تحركها رياح الصحراء مثل غاطس مركب قديم.

وأمام فتحة الخيمة سياج صغير من الأغصان وقطع من الصفيح، وبعض الماعز النحيف المقزز يجر ضروعًا مُترهلة مُتهدلة.

جرى نحونا كلب غاضب مكلىّ مسلوخ هزيل. تلك كانت خيمة عبد الله الرجل شقيق محمد. صاح مُرشدنا: سعيدة يا عبد الله.أجاب صوت من الداخل: سعيدة يا محمد.

وظهر عبد الله خلف السياج. كانت ملامحه جسورة قاسية: كان يلتحف معطفًا طويلاً من الصوف الأبيض فوق صدره، وكانت حركته مهيبة، وكان مظهره أنيقا وفوضويا فى نفس الوقت. ودار بين الشقيقين حوار طويل هامس لم أميز منه سوى اسم فاطمة الذى تكرر مرات عديدة.

لقد حدثنى السير "وارد" كثيرًا عن فاطمة، أجمل نساء الشرق كله، كما أنه حدثنى عن زوجها، مصطفى البار، فهو صياد ماهر، حكم عليه البؤس والغيرة أن يمارس مهنة هزيلة بائسة على دهبية النيل. كان يقال إن هذا الأخير كان العدو اللدود لمحمد بسبب بعض الحكايات التى لم أعد أتذكرها.

ألقينا التحية على عبد الله، وأستأنفنا السير فى القرية الموحشة عبر الطريق الذى صار رمليا.

ووجدنا فى طريقنا هيكل جملٍ فى حالة مُزرية.

وفى حوالى الساعة السادسة وصلنا إلى مجموعة من النخيل المُصطف على الشاطئ، وراح البحر الرمادى يتلون تدريجيا بلون الورد.

وانتظرنا ونحن نجلس على مقاعدنا الصغيرة القابلة للطى وكل منا يبعد عن الآخر بمسافة عشرة أمتار، وقد اتفقنا على أن نصوب فقط فى اتجاه البحر، حيث يوشك السمان على الوصول.

أخذ محمد يحفر حفرة كبيرة وساقاه يتقاطعان فى الرمال. كان يريد أن يجعلنى أتبين حرارة الشمس المتركزة تحت الأرض.

وفى الساعة السادسة والنصف سمعنا حفيف أجنحة... وهوت أمامنا أول أسراب السمان، التى اندفعت كطلقات البندقية... كان الإعياء قد أنهكها.

فشلت الطلقات الأولى. لم تكن الرؤية واضحة بالقدر الكافى. فى الفترة الفاصلة ما بين طيرانٍ وآخر كان محمد يهز ساقيه بشكل يثير الفضول على مسافة قصيرة منى، وكان يعلق سمانًا وهميا بعصا طويلة ويطقطق شفتيه وهو يصيح: شوف! شوف! بام! باااام!

كان يأخذ على عاتقه أعباء بطولية، أو ضعيفة بأزيز طموح وخوار من المُتعة.

استمرينا فى الصيد حتى الساعة التاسعة... وجاء بعض الصغار شبه عرايا وقدموا لنا سلالا صغيرة مملوءة بالتين الطازج الحلو مقابل بعض العملات الصغيرة.

وأشرقت الشمس تصعد... وهاج الذباب وانتشر مع ارتفاع حرارتها. و بدت الرمال فى ذلك الوقت وكأنها رماد. وراح محمد يصنع لنا بمهارة مراوح من سعف النخيل، ثم بدأ يحكى لنا حكايات خرافية للكاتب الفرنسى "لافونتان".

مازلت أتذكر نخيره وحركاته الصبيانية الغريبة وهو يقلد الحيوانات.

عند العودة سرنا بمحاذاة النيل، الذى يجرى بملمسه الدهنى ولونه الضارب للاصفرار بين شواطئ مُلبدة بالخضرة. واكتشفت بشىء من الدهشة كرمة، نمت فى الرمال بين أشجار التين الملتوية، وأشجار النخيل الصغيرة. شرح لى محمد أن عنب هذا النبات حلو المذاق؛ بسبب المواد العضوية التى تخزنها التربة من بواقي المحار. تجمعت ظلال النخيل: فقد انتصف النهار. ولمحنا القرية. ظهر الحشد الصغير المهرول من الأكواخ والبيوت الفقيرة مكعبة الشكل تنتشر هنا وهناك وتكتسى بفروع خضراء، وبدت ساكنة مُتصلبة أسفل لهيب الشمس، كان المشهد مُنهكا كما لو كان قد انصهر من شدة الحر.

وقادنا محمد عبر درج من الوحل حتى صهريج تحت الأرض به مياه عذبة مائلة للزرقة.

بينما كنا نصعد، مرت بجوارنا امرأة ترتدى ثوبا فيروزى اللون. كانت تصعد الدرجات الصغيرة المنحدرة ببطء حاملة على رأسها سطلا أسود اللون وذراعاها مرفوعتان لتسنده. كان فخذاها يتموجان مع كل خطوة، وكان نهداها الصغيران المستديران المتماسكان يرتسمان أسفل ردائها.

راحت تحدّق فينا بمقلتيها الناعستين كالمطاط الأسود التى تكاد تغطى بياض العين. وكانت تستر فمها قطعة من القماش الأسود، تتصل بخمار رأسها بواسطة رباط يمر عبر أنبوبة صغيرة من النحاس مستندة على أنفها.

تابعنا المرأة. ولكن محمدا استوقفنا بإيماءة. وبحركات حذرة تحت أشعة الشمس الحارقة وبإصبعه على فمه، وعدنا بفاطمة الرائعة فى تلك الليلة نفسها، عندما يخرج زوجها ويبتعد عن البيت.

ولاحقتنى طوال اليوم عينا المرأة العربية الجميلة، تلكما العينان النديّتان كعيون الغزلان، فى الأزقة الوعرة كريهة الرائحة، التى تعج بطنين الذباب الضخم الأخضر.

أعترف أن امتهان فاطمة للدعارة كان يشغل تفكيرى. كنت أتوقع جدالاً مُقززًا لثمن مُضاجعة تافهة دفعت فيها بسخاء الأمراء.

آه... لو أننى كنت قد تمكنت من مقابلة الحسناء، أو لمحتها فى أية نافذة، فلربما كنت قد استطعت تدبر الأمر بطريقة أكثر رومانسية!

لذلك كنت أستطلع فى أثناء سيرى الأبواب التى تشبه مداخل الكهوف، والتى كان ينبعث منها دخان يميل لونه إلى الاحمرار بسبب المقليات المُقززة وروائح الغائط العفنة. وعلى حين غرّة، بدا لى أننى لمحتها على عتبة بيت صغير مُنخفض للغاية لدرجة أن الدواجن كان يمكنها القفز من شرفته إلى قارعة الطريق.

لم تكن هى. كنتُ بمفردى، إذ إننى كنتُ قد انفصلت عن أصدقائى فى مُفترق الطرق الأخير، ما انفك قلقى يتزايد.

وفى ميدان صغير، كان بعض الموسيقيين المتجولين كفيفى البصر يؤججون سكون النيران وهم يدندنون بغناءٍ رتيبٍ يصحبه أنين المزمار.

خرجت من القرية لأتأمل الغروب فوق الرمال بعد أن تناولت فى عجلةٍ طعام الإفطار البشع فى أحد المقاهى اليونانية الصغيرة، واستسلمت بالفعل لفكرة عدم رؤية فاطمة قبل حلول الظلام الدامس.

استدعانى أصدقائى من أعلى إحدى الشرفات. كانوا فى بيت بعض أقارب محمد، وهذا الأخير كان يقدم لهم واجبات الضيافة – مع كثير من الانحناءات – كان يقدم، باحترام جمّ، مشروبات "كيو" الكحولية التى كانوا يحفظونها فى قربةٍ من جلد

الماعز المطلى بالقار. وأمامنا فى الزقاق كانت رائحة الكحوليات والينسون وشراب الأخسنتين تفوح من إحدى الحانات الصغيرة الهادئة.

ومرّ بعض الزنوج ضخام الأجسام يرتدون ثيابًا بيضاء، وعلى آذانهم تحت العمائم باقات صغيرةٍ من الياسمين. ومرّت بعض النسوة، كلهن متشحات بالخمار وغامضات. حاولت أن أتبين فاطمة من بينهن!

كان أصدقائى يأكلون بعض الحلويات الهشة التى تعبق برائحة الرمان والورود، ويغمسونها فى عصير الليمون المُحلى بالعسل والمملوء بالفستق.

أقبل الليل. وراحت شمس الأصيل تقذف حمما بركانية مُتأججة من وراء البيوت الصغيرة المُزدانة بالزهور. كانت الرمال تتلظى.

ثم ببطءٍ شديدٍ، أخذت ألسنة اللهب والألوان الأرجوانية تتوارى. واكتسى المشهد بملمس مخملى من الياقوت الأرجوانى، وسكبت الشمس وهى تأفل شذراتٍ ذهبية شهية جعلتنى أفكر فى منحل يتدفق منه العسل. وظهرت جزيرة بعيدة من الخضرة بين الرمال المصقولة النفيسة كقطعة من الزمرد يحاوطها الذهب. انحنى محمد تجاه الغرب واضعًا يده على جبهته ليطرد أرواح الليل الشريرة.

فى إحدى الشرفات، كان عجوز ذو لحيةٍ بيضاء، يرتدى ثيابًا زرقاء، يقف مستقيمًا مُتلاصق القدمين فوق حصيرةٍ صغيرة، ومن حين إلى آخرٍ كان ينحنى إلى الأمام للركوع، ويسجد على ركبتيه، ووجهه إلى الأرض، أقام صلاته لله مُتجهًا صوب الغرب.

صعدت كذلك بعض النسوة إلى الشرفات القريبة.

عندما بزغ القمر بخيوطه اللؤلؤية النديّة فوق المنزل المُقابل، أومأ محمد لى بإشارة وغمز بعينيه، وتابعناه عبر القرية... أقحم أزهار البنفسج الصغيرة فى منخاره، دليل البهجة.

توقفنا أمام أربعة منازل منفصلةٍ ومُعوجة، وكانت شرفاتهم تتدرج فى فوضى غريبة ممتعة. كانت تبدو وكأنها أربع ساحرات شمطاوات تعرجن فى الجبس، وقد تجمدت حركتهن مساء فى مجمع سرى مظلم شرير.

كان هناك فناء صغير فى مُنتصف تلك المنازل. ولج محمد فيما يشبه بابًا أسود، وخرج منه بعد قليل تتبعه امرأة قصيرة القامة وسمينة، تخفى رأسها وفمها بالخمار. كان رداؤها فضفاضًا، ويمكن التنبؤ على مضض بثديين طويلين متهدلين أسفله... إنها أم فاطمة. اقتربتُ منها... ورأيت خواتم من النحاس تصلصل حول كعبى قدميها ومعصميها.

بعد قليل، تناهت إلى مسامعنا من الداخل ثمّة تمتمة... بعض النسوة تتبعهن شرذمة فى أسمال بالية أحاطن محمداً. جميعهن، كن يصحن ويلوحن، رافعات إلى السماء أذرع بلون القهوة باللبن، يغطيها وشم يميل لونه إلى الحُمرة وأساور توسوس. كان النقاش يدور حول ثمن فاطمة.

جذبتُ محمداً إلى الداخل لأضع حدا لتلك المفاوضات. كان القمر فى عليائه يضىء بعنف الجدار الذى يفضى إلى الفناء. ولكن تبعتنا العائلة وبدأ النزاع من جديد. كان الوضع مُحزنًا وعجيبا: فى هذا المشهد الفاخر الذى توشى فيه الظلال أطراف ضوء القمر كانت جلبة تلك العائلة شعثة الرأس تتشاجر بسبب ثمن فتاة من بيتهم.

على شرط ألا يصل مصطفى زوجها فجأة! هذا ما ذكره لى محمد.

تم تحديد الثمن.

تركتنا الأم وذهبت لتحضر ابنتها. تسلق محمد برشاقة درجات سلم صغير حتى وصل إلى أعلى شرفة من الشرفات الأربعة. كان يريد أن يراقب عودة الزوج المُحتملة. جلس مستقيما باسطًا كفه كالدرع فوق عينيه وراح يغنى بصوتٍ رتيب:

ترا لا لالا... لا لالا، جسدك عذب

جسدك كالموز شهىّ

جسدك مرمرىّ

كالقمر.

لكن القمر بارد

أما ثدياك فيشتعلان

تحت قبلاتى ترا لا لالا... لا لالا، جسدك عذب!

كان محمد يغنى منتصباً هناك فى موقعه المرتفع من القرية التى كانت تخلد إلى النوم وهى تبرك على ضفة النيل، وكان يتفحص النهر ومياهه الرحبة التى تنساب مُتثاقلة. من هنا وهناك، كانت تلك المياه تبدو هنا وهناك كالمخمل الفاخر الذى تطبق جدائل القمر الفضية على أطرافه.

لم يكن على سطح النيل ولا حتى قارب. كان القمر على حافة غمامة عالياً يبتسم بسخرية، وصفحته كوجه رذيل جامد، ذى عيون يحوطها الكحل الضارب إلى الزرقة. كانت السماء المتناغمة الفضية تتمايل على رأس محمد، كانت حميمة مصطنعة المظهر وتضاهى سموات. فى بعض لوحاتٍ قديمة. وسمعنا حولنا طنين حشرات لا يوصف، وأنين أغنية بعيدة تنبعث من اتجاه النهر.

لا أتذكر على الإطلاق متعة خاصة منحتنى إياها فاطمة الحسناء. كانت كأى أنثى...

كان محمد لايزال يتغنى أسفل ضوء القمر :

ترا لا لالا... لا لالا، جسدك عذب!

كانت الحجرة قذرة، وطشت الاغتسال متشققا ويميل إلى الاصفرار!...

وذلك الباب اللعين الذى مابرح ينفتح باستمرار!...

ويقولون إننى كنت أتلهف كثيراً إلى تلك الملذات!...

وبغتة، سمعت صوت بندقية، ثم صرخة تدمى القلوب فى ضوء القمر الخافت! (محمد لم يعد يغنى...)، وصوت ارتطام جسد ثقيل، فى طابق علوى، ربما فى الشرفة!...

أسرعت فى الخروج. كان الهرج والمرج لا يوصف فى الفناء.

كانت النسوة يصحن بصوت يمزق القلوب: مصطفى قتل محمداً! مصطفى قتل محمداً!

كانت شرزمة من الناس تئن وهى مذعورة. أفسحتُ لى طريقًا بضربات مرفقى لأتسلق فوق السلم، وأصعد إلى أعلى شرفة. كان محمد مُمددا وبطنه إلى الأرض وسط بحرٍ من الدماء.

حاولت رفع الجثة. كان بارداً وثقيلاً للغاية. استحال علىّ نقله.

فى الفناء، وقع أصدقائى فريسة للحيرة والاضطراب، لأن بعض العرب جاءوا ليخبروهم أن مصطفى زوج فاطمة يريد أن يقتل الجميع.

ولكنه لم يقدم على قتل ضحية أخرى. فقد مرّ بجانبى حتى دون أن ينظر إلىّ. كان قد قتل محمدا لأن هذا الأخير لم يكن قد دفع له، فى آخر مرة، أجرة مُضاجعة فاطمة!...

ياله من مسكين محمد الرجل!

(٩)

محاورة هادئة فى أثناء تناول الطعام على ظهر الدهبية

وأخيراً محطة كفر الزيات تكتنفها عربات الجر، والصخب، والجلابية، والعباية لتفصح لى عن رغد النيل المُتعرج وتدفق مياهه الخضراء العكرة اللامعة التى تحمل السفن المُسلحة بالسوارى الشامخة. مناقير طافية لطيور "الفلامينجو" الضخمة الغريقة. ها هو موكب صاحب الجلالة القطن المُبحر فى بالاته الضخمة المُغلقة بأختام الرصاص. فى مراكب ممتلئة ينزل النهر العظيم التجارى المصبوغ بلون التماسيح والجاموس وجوخ لندن البنى، ليعبر المياه ويتحول إلى ملابس أوربية.

يزينه ويطرزه تحليق الحمام الأبيض اللولبى. بدت الدهبية التى تقلنى كفيلًا صغيرة فيروزية اللون انزلقت إلى الأسفل من شاطئ السُبات. وتحت عارضة المركب المطلية بالقار همس النيل قائلاً:

"كنت تنعس ساكنًا، فلتنعس الآن وأنت تبحر. وإذا كان إبحارى يبعث الضجر فسأمنحك درجات سلم ضفافى حتى ترقى إلى سلام السماء الموشى بأشعة الشمس الذهبية.

إنها درجات سلم غاية فى الطول نحتتها المياه فى "الحلوة" الرخوة الداكنة بفعل الرغام. ألقت الدهبية بالهلب فى حديقة "جزيرة".

على مائدة الطعام، ومع الأشرعة القريبة البعيدة التى توجها الأسراب البيضاء، احتسينا سائلاً مُمتزجًا بأشعة الشمس التى تنفذ من الواجهات الزجاجية المربعة. كان يقوم على خدمتنا زنوجٌ ذوو وجوهٍ بلون الكربون أسكرتها أشعة الشمس، وكانوا يرتدون الجلباب الرائع ويتمنطقون بالأحزمة المتوهجة.

ويزين النيل الخلاب الذى يتسع نحو ٧٠٠ متر و ١٠٠٠ مترٍ فى تلك المنطقة خلف الجزيرة، ودعانى الضباب الرمادى البعيد المُثقل بأطراف السوارى المصقولة اللامعة إلى السرعة ورحت أتابعه وأنا أرتشف قهوة تركى على متن القارب السريع.

فى تكاسلٍ مُتعرج رفع لى النهر الحُجُب عن الصحراء فيما وراء مهده وتربته السوداء وحشائشه الخضراء. كثبان رملية. صلابة صفراء من تناغم الرمال و تدافع الرياح، إنها تتصاعد، ويخفت إيقاع القيثارة فى صمت، ويرتفع نقر غاية فى العذوبة على الأوتار.

وإذا ما ثارت الرمال؟

يرفع النيل بحذرٍ شراعًا كبيرًا ويكوره فى مواجهة الشمس وكأنه غلالة يحمى بها صفحة مياهه العذبة من رياح "السيمون".

وراحت سرعتى تعجل من الارتفاع السحرى للأشرعة البيضاء الأخرى. هذا الشراع الذى يسير ببطء شديد، يبدو أنه صلاة النهر العابد الخصبة الطاهرة وهو مُستلقٍ. يفتح ذراعيه المنسوجتين. يتضخم من النشوى.

ويرتفع الشراع وهو واثق من تهدئة ضراوة الشمس، والوصول على الفور إلى سلام مُنعش متلألئ بالنجوم.

وعند الإبحار تحت الظلال، كان البحارة يغفون وهم مضجعون على حمولة الزورق الهرمية للجزء المُنغمر من السفينة فى المياه حتى حافتها. مقدمة القارب يقظة بفطرتها. وفى الخلف تأتى الدفة الطويلة السوداء عديمة الجدوى وكأنها ذنب من الطين.

ونسمع خرير مياه النيل:

"أسمّد بأناة الأرض صديقتى، ولكن وجنات فتاياتى المنسوجة تتضخم بفعل الرياح وتمتلئ بنفحة الله المقدسة المختلطة بالنجوم، ثم يعدن إرسالها داخل واجهات عرض صائغى السوق!"

(١٠)

آلية الدراويش المقدسة

وسرنا بحماس بمحاذاة أسوار القلعة المُتدثرة بأردية حجرية عالية مُتعامدة بلون الصحراء، طيّات حادة وفوهات سوداء من مدافع إنجليزية فى فتحاتها.

عند سفح هضبة المقطم، وجدنا سلّما عبر بنا إلى أسفل حجرة مرصد قائد الدراويش. إنه فناء صغير من نبات الصنوبر والسرو الأغبر. دلفنا إلى الكهف الفسيح المنحوت فى الحجر وأرجلنا معصوبة بالأقمشة. مقابر على اليمين ومقابر على اليسار. فى نهاية الكهف، عند مربع من الحصير يحده سور من الحديد، كانت هناك ثلاث عربيات يتدثرن بالكامل بالسواد، يتمددن وأرجلهن تجاه المدخل، ويتدحرجن كأسطوانة حبر الطباعة ليتلطخن بحبر الخصوبة.

وفى الخارج، فى شرفة مغروس فيها شجر "الأوكالينوس" كان الدراويش يتأملون وهم جالسون القرفصاء أو جالسون على الرخام يرتدون عبايات طويلة سوداء وقلنسوة كبيرة رمادية عليها شريط أبيض. كان قائدهم يسوسهم بزر قلنسوته الأخضر والمنشة طاردة الذباب تشير بعيداً فوق مخزن البارود الإنجليزى، وفوق قباب الموتى المُستديرة المخططة الشائكة، وفوق النيل الذى ينساب بين المروج الخضراء وتوهج الأهرامات البرتقالى. إنها ثلاثة أشكال هندسية. كل هرمٍ يلقى بظلاله المُثلثة وكأنها معطفٌ دائمٌ يغطى القفا.

استدعانى إلى المغارة المُقدسة ضجيج ورشة. كان الدراويش يبسطون أذرعهم ويدورون حول أنفسهم كالنحل، والسترات والتنورات الفضفاضة البيضاء تدور

مع حركـة دورانـهم. راحت عفـوية صـوفية متضـرعة تكدر الوجه النحيل الذى كان يشاهد الدورة.

كان المُحـرك المُقـدس يهـتـز ويصلصل. وتعمل الآن فى ورشـة خـراطة الصلب الكبيرة خمس عشرة مخرطة. تبرد الأرض. تصقل سطحـها الوعر. وتثقب القلنسوات العالية الخالية من الزر الهواء الصلب. ويسيل عليها بين حين وآخر تضرع باكٍ كزيت يلطف صرير الآلات الموسيقية العربية.

ويعلو صرير الفرقة الموسيقية المُحتشدة ذات الأسمال البالية المُجتمعة :

"فلنحاكِ إيقاع الكون!

علينا ميكنة الإنسان- ترس المجموعة الشمسية !"

توقفت مخرطة بشرية... اثنان... خمسة... يتصببون عرقًا. ويقبع هذا المُنهك قريبًا منّى على الحصيرة خائر القوى. يذهب أشدهم جلدًا لأخذ البرانس من الزملاء المُسنين، ويسترونهم بمحبة، ثم يشرعون جميعًا فى الصلاة وأقدامهم مُتلاصقة.

حينئذٍ فقط رأيت قائدهم: إنه الوحيد الذى ظل على الحصيرة بينما كان الآخرون يدورون. كانت قلنسوته الرمادية على وجه بلون الرماد تنصت إلى الصلاة... ينهض... فينهضون. كانوا يتبعونه بأزيز طويل كعروس بحر فى ضباب نهر "التيمز" الإنجليزى.

(١١)

بغال صاحب الجلالة القطن

ينظر لفيف من العرب فى أسمالٍ باليةٍ ذات ألوان خضراء وصفراء وزرقاء إلى الصرير المؤلم لمحاور وعجل كوبرى حديدى فى أثناء تشغيله، فحينما يدور ببطء يسمح بمرور أشرعة السماء العالية وبغال مُلطخة بالطين مشدودة على حبالٍ طويلةٍ مُحكمة.

لفيف يمشى وهو نائم. يخطف الضوء أبصاره. ما زال جميعه مُدخنًا وعفنًا فى قريته شيكولاتية اللون: أكواخ من الطمى مُنخفضة مُظلمة، أبقار وماعز صغير، كلاب و دجاج عفن، صياح الديكة زاهية الألوان وجاموس أسود يصوّب قرونه تجاه مشرق الشمس الخزفى البديع.

تنحصر القوارب فى حوض التثبيت المغلق قلقة من نقل حمولة القطن الخام: تئن، وتتذمر، وتصرّ من الغضب وهى فى هذا الفخ الأوربى! وبخطوة متثاقلة ورتيبة يتقدم أربعة بغال زنوج فى أسمالٍ بالية، وشبه عرايا. ينحنون ويحفرون فى الطين ويثبتونه، بلا هدف.

قاموا بمد الحبال لسحب الزورق الشراعى الهائل البعيد، وهو شبه غارق تحت ثقل حمولة من القطن المليونير التى تسحق أكياس البذور الحارة وسوف تنتج بالفعل تيل الخيوط القادمة أكثر بياضا، ولمعانًا وطولاً. أصدر زنجى صغير أوامره بالإبحار وهو يمسك بأسنانه قطعة من قصب السكر ويمتطى مقبض الدفة.

وراحت المراكب المُحملة بالقطن على الشاطئ تحاصر مقبرة عربية صغيرة نزلت قبورها الرمادية ذات الشواهد والعمائم وسيوف الصبار لتغتسل فى مياه

النيل . .. وارتفع قرع نواقيس وغناء حزين مكتوم فى الجو الذى بدا كقطعة الصوف الساخنة.

قطارٌ يسير بالبخار يتصاعد منه دخان ويحمل لافتة تحذير "احترس من القطار" ... وأطفال ذوى بشرة داكنة استعمرهم الذباب وأشعة الشمس العالية... يبخّر دخان القاطرة المستدير المتسع الصافى مئذنة زرقاء بثمرتها الزرقاء، أى المؤذن، ونداؤه الأزرق ينطلق نحو الشمال والجنوب والشرق والغرب: الله أكبر.

هالة من الصقور السريعة مثل "كنّاسين مُجنحين" حقيقيين تترصد من أعلى جيفة كلب تخفف رائحته العفنة حدة رائحة دخان فرن بُنى بحجارة من روث جمل تم تجفيفه تحت أشعة الشمس.

(١٢)

لمسات مُتناحرة للمواد الدهنية الخصبة والزجاجية العاقرة

شهوات حسية حادة ألهبت شفتى ومنخرى. وراحت عروقى التى تمددت وكست عجلات سيارتى تحمل إلىّ متعة لمسات الإطارات المختلفة.

بدا الطريق دهينًا بفعل التربة السوداء مُلطخًا بالوحل مالآن قذرًا ومُشبعًا بالجراثيم. تتساقط جوانبه على القرية المُنبسطة، ذات المستنقعات العكرة والسولقى الهزيلة، التى تضايقها الخيول النحيلة، والأبقار برونزية اللون، التى تتناثر كالزمرد فى المراعى، وطيور أبى قردان الفاتنة، ومجموعات الحمام المُحلقة.

وبعنفٍ، ارتجفت بشرتى المُتشحمة بمياه النيل على حافة عالم جديد ملموس... عالم جاف بأكمله، فهو إمّا زجاجى وإما معدنى: إنها الصحراء!

ولجتُ فى الرمال الخانقة التى تملأ الأفق. سقارة. وعلى ظهر الجحش استمتعت يداى المتوهجة برطوبة ظهر الحمار الصغير المُتصبب عرقًا تحت السرج. حرارة الجو تضطرم. كماسة ثمينة تلألأت قطرة عرق فوق جبهة رفيقة سفرى، التى بدت وكأنها ملكة سبأ بين سائسى الحمير المتهامسين ذوى الوجوه المُرهقة الضاربة إلى السواد.

عدو كركض الأطفال على حاشية لامُتناهية من الرمال. هذه هى رقة ونعومة الرمال العابرة.

(١٣)

تفكير الصحراء الرفيع

تُمثل الصحراء ألقلب الموحش ليابسة الأرض ومائها. بحوافر الجحوش الرشيقة الواهنة نحلَ بالطبع أكثر مشاعرها برودة وغموضًا. الرمال تحيا وتفكر ولكنها لا ترغب فى التحدث. رتيبة وغائبة وشاردة. لا تقول شيئًا ولا تعطى شيئًا للإنسان. تستقبلنا الرمال وهى صامتة بعد أن حفرها تجعّد أحد الدروب. صمت رهيب للسيرابيوم تحت الأرض وقبوره الصخرية الجراتينية التى تضم "الثيران المقدسة" وقد غلفوها بعناية فائقة فى القار وأملاح النطرون والأعشاب العطرية والطين الذهبى والبراعم وأوراق البردى! وهذا خطأ، لأن الجشع والفضول البشرى استطاع أن يسلب ويُبدد تناسقها الخالد.

كيف واتت اللصوص الجرأة والعضلات الفولاذية التى مكنتهم من رفع وشجّ أغطية تلك المقابر الشاسعة؟

لابد وأن خوار لعنة تلك الحيوانات الذاخرة بالحياة الصناعية صعقتهم جميعًا فى الرمال كالحارس الأمين تعرقل خطوات هروبهم الليلى.

ومن خلال سُمك الصحراء نشعر ونرى تصاعد الإرادة الصلبة كأشعة سوداء طويلة تطن وكأنها دينامو جبين وصدر أولئك الملوك والمحاربين والقضاة والتماسيح والثيران المقدسة. إنهم يعيشون حقا فى ديمومة فعلية من خلال لوحات صورهم المصنوعة من الذهب والفضة والنحاس والحجارة.

(١٤)

الهرم المتوهج ومساحة نضرة

تركنا تلك الكثبان الرملية وتلك المقابر الذاخرة بالحياة ونحن سكارى بسبب سعادة دنيوية مُتجددة واتجهنا إلى الطريق الرخو الطينى، كالذى يغادر فراشا جافا وزاهدا لينزلق فى حوض مُعطر.

كانت رءوس الجمال المُغطاة بالوحل تطفو فى هواء فترة الظهيرة، وبحمولتها الكبيرة من قصب السكر وأوراق الذرة تداعب سيارتنا بسخرية. ولم يظهر سوى خُفاف أكثر الجمال حمولة كغابات مُتماوجة تواصل المسير. وقد أظمأنى أحد الزنوج وهو يغترف الماء بالشادوف من إحدى الآبار، ووصلتُ وقد استبد بى الظمأ إلى اللهب الأصفر الشاسع الذى يرتجف على وجه هرم الجيزة. مضطرم بأكمله، ولكنه كان ناضرًا بأكمله بفراغ شاسع، ذلك الاضطراب المؤلف من ثلاث طُرق تنتصب وتتلاقى فى القمة البراقة حتى تصل إلى الشمس.

كطقسٍ روحانى، قمتُ بزيارة قاعدته، التى يبلغ ارتفاع كل صخرة منها مترًا. ثم انفصلتُ عنها. ظهر أبو الهول الضخم وذيله المُلتف وأقدامه المُنبسطة المصنوعة من القرميد تلقى ببساطٍ ضئيل من الظلال. فى إحدى تلك البقاع الظليلة تجمع أحد عشر شخصا من العرب ومن ساسة الحمير أو المرشدين، وشكلوا بقعة يميل لونها إلى السواد حول دورق مياه وقليل من البصل وقطعة من الفطائر غير الناضجة.

مجموعة ثانية مُعتمة تظهر فى سطوعٍ مضىء: إنها عائلة مصرية تتناول طعام الغذاء فوق الرمال. شفَّ النقاب الأسود العذب فوق العيون السوداء الكحيلة. تعلو ياقة من الفرو عفا عليه الزمن على رداء من الحرير الأوربى. وتحمل مربية أطفال من

الخرطوم طفلا بلون الكربون بين طيّات غلالة صلبة من الصوف الخام بلون يميل إلى الأبيض تدثر جسدها وتحجب وجهها. وعندما نهضت محا ذيل ثوبها الصلب الثقيل برصانة آثار أقدامها العارية من فوق الرمال. و تنهش الشمس ثنايا الملاءة السوداء للمخدومة التى تخفى أنفها أسفل يشمك أبيض. ونسمع وساوس أساورها الذهبية. وصو...صو... صو زقزقة عصفور الذُعرة الرشيق الباريسى الذى يتراقص فوق الجرانيت الخالد الخشن. وغاغو... غاغو... غاغو هديل القُمرى والحمام فوق أنف أبى الهول المُهشم. وحا... حا... حا نهيق حمار فى غابة بعيدة من النخيل.

(١٥)

هرم للأكل

أشعر بالجوع. سيتم تقديم الطعام خلال ساعة فى فندق "ميانا". فى تلك الآونة يشى الهرم الساخن بكل تدرجات الألوان: ذهبى عتيق، مخمل برتقالى، لهيب مُتجمد وردى اللون... إلخ. لا يبعث أى شعور بالحنين. لا خلود. لا يشير إلى شىء. لا يتسلط، بل يقدم نفسه كطعام على المائدة، أو بالأحرى فى هذه الصحراء المهيبة المُعدة. عبق طعامه الشهى يتعرج ملتمسًا طريقه إلى منخارى. تتشقق قشرته تحت تأثير أتون انعكاسات الشمس العليمة الهائلة. طعام جيد الطهى. تلمظ لسانى فى فمى رغم أنفى. ليس عبثًا أن سعفَ النخيل البعيد يرسل من جديد تحيته المُبجلة، ومن فوق الكثبان الرملية التى تتحول بشكل ساحر إلى قباب من الحلاوة وفاكهة السفرجل المرصعة باللوز والجوز. السماء عذبة بيضاء كأفضل علبة علك، تلك التى سقطت فيها وفارقت الحياة الطفلة عاشقة أكثر حلوانيى مصر عبقرية.

نسيت إفطار فندق "ميانا" فى ظل أبى الهول المتنامى وغفوت وأنا أمضغ قطعة شهية من الهرم. عندما استيقظتُ كانت الظلال قد زحفت فى الصحراء كجيش مُلتف بالظلام. بدا لى هرم الجيزة وكأنه مصنوع من بللورات الفستق. وأكلتُ منه المزيد أخذا فى الاعتبار ما حدث عند عودتى إلى القاهرة، فعندما استدرتُ فى عُجالة رأيتُ الهرم يستعيد شكله من جديد بنفس طيفه القديم الحالم. كان يطفو على سطح سائل ذهبى ضارب إلى الاحمرار عند غروب يشبه غروب فيكتور هيجو. وعلى اليمين ذابت فسيلة ناصعة البياض مُزدهرة بجانب مئذنة مع سعف نخلة شاهقة وكأنهما قطعتان من حلوى السلام التى تأخذ الأذهان فى ماء الشفق الفضىّ.

وعند منتصف الليل فتح نسيم النيل بلطفٍ نافذتى فى فندق "سميراميس". وفى الفضاء كان البدر يستقر بخفة فوق أوراق ثمرة موز مُتفتحة.

ها... ها... ها إنه صراخ خفر الليل عندما ينادى بعضهم بعضًا. أكلتُ القمر قبل أن يُسلب منىّ، موقن بأن الشهية لها الغلبة دائمًا، وكم كنت مسحورا بهذا التسابق المُبهج للحلويات العربية.

(١٦)

فـى نزهـة مع أمـى عنـد المرفأ القـديم

فى إحدى العصارى التى تميز شهر يناير فى مصر، البطيئة الناعمة الفاتنة الذهبية، ذهبتُ إلى زيارة الشاعر الإغريقى الشهير "كوستانتينو كفافى" الذى يفضل الإسكندرية مسقط رأسه على بلده أثينا النائية الشاردة.

كان الكاتب الصحفى الإيطالى الألمعى "كندارو" يحدثنى عنه بفصاحة بينما كنتُ أتجول وأقيّم دوافع الشوق التاريخى الذى يربط ما بين روح شاعر وزُرقة المرفأ القديم نصف الدائرى الذى أضحى الآن مهجوراً، ولكن من المؤكد أنه يعج بسفنٍ ملكيةٍ فخمة خفية.

تلك كانت نزهة أمى المسائية المُفضلة، حيث كنتُ أرافقها وأنا فى السادسة عشر من عمرى وأحاول أن أجعل خطواتى الحالمة تتوافق مع خطواتها الحازمة المُتعجلة. كانت تبدو وكأنها تلاحق حزنا من أحزانها المؤلمة، بينما قد أسرنى لهيب الغروب كالتنويم المغناطيسى، فهو كخبير للحروب والبطولات كان يحاول ويحاول رسم مشاهد كل معارك السحب المُحتملة والفروسية الأرجوانية وطلقات أشعة نارية وانهيار قلاع من الذهب... وهلم جراً.

كانت تداهمنا روائح المذبح العفنة الحادة، و بيت فقير يميل إلى اللون البنفسجى يحاصره كوم من جلود الحيوانات المضرجة بالدماء وأكوام من القمامة وخوار البقر الغضوب. يذكر منخارى رائحة الموت المرعب الحاضر فى ذلك المشهد، مشهد الروائح القبيح فى أنحاء هذا المكان على اليسار، بين ظلال شبح حيوان كان يفزع أقدام المارة العرب الذين يرتدون التنورة والمداس الأسود ويسيرون بطول المياه

الرائعة. لم يعد لهذا المذبح أى وجود الآن، بل رصيف مُبلط واسع، تحميه كتل خرسانية، تسمح لنا بالوصول دون عناء إلى الأطلال الرومانية التى تبرز فى زُرقة البحر فى منطقة "لسان السلسلة".

ملوحة طائرة منعشة لذكريات مريرة. حفيف الهواء والزَبد كانا يحرضان الطفل السّباح على الغطس. كنا صورتين من الأبنوس تقفان مقابل سماء منيرة بالسحب البيضاء على ظفر وردى لأحد أذرع الميناء القديم بينما تدفع اليد الأخرى قلعة قايتباى إلى أعالى البحر، ذلك المبنى القديم الواهن المائل للبياض الذى لابد وأن عين "كفافى" الفاحصة لم تره، حيث إن الفنار القديم أحد عجائب الدنيا السبع يرتفع مكانه.

كانت أمى تقول: فلنعد أدراجنا إلى البيت يا "توم" .

وأنا الآن أقول لرفيقى: فلنعد أدراجنا. ويتحول فى الحال الغروب الغامض فى مذبح تلك الأيام الخوالى الكبير إلى مسخ من أحشاءٍ تميل إلى الاحمرار ذات بخار يتساقط فوق حديقة موز أوراقها من الزمرد واللآلئ قد صارت رمادا.

عند تقاطع "الكركون" أقترب من غدو ورواح الحارس الإنجليزى الهندسى ودرجات سلم نادى محمد على التى ربما لاحظتها أنا نفسى عندما كنتُ طفلا، بل ومازلتُ مُدركًا لقضبان شرفة منزل أبى. ورحت أتساءل: هل ما أسمعه من ضجيج المدرسة والديكة هو ضجيج اليوم أم الماضى؟ وعلى عتبة منزل الشاعر "كفافى" تباركنا نخلة أعلى من المئذنة والمؤذن اللذين ابتلعتهما ظلمة الليل.

(١٧)

الشاعر اليونانى المصرى "كفافى"

ها هو... رأس صغير رمادى ذو ذكاء عذب، وأذرع هزيلة تجدّف خارج قوقعة الشعر اليونانى الرومانى الضخمة ذات الصبغة المثقفة، خميل أحمر قان وأطر صور تمطر قرونا منسحقة كالرماد.

كان الخادم السودانى الذى يقدم لى على "الصينية" الويسكى بالصودا مع مزة الجبن اليونانى التقليدية يرتدى سروالا قصيرا بنفس اللون الأحمر القانى ومطرزًا باللون الذهبى. بينما كنا نلوك نحن - الاثنين - المزة، هو كراعٍ ساذج بسيط وأنا كقائد مركبة فى سباق بدأنا نقاشا حول شعر المستقبل.

امتدح كفافى اتجاه الحركة المستقبلية، وصرح بأن " تأويلها الرمزى للمراحل التاريخية التى طبقت على الحياة البائسة المعتادة" لهو ظاهرة صحية.

وأضاف: يجب صياغة هذا التأويل فى الشعر الحر، دون اللجوء إلى الأوزان الشعرية القديمة أو القافية.

وأجبته بأن من الضرورى تجاوز الشعر الحر والوصول بسلاسة إلى تزامن الكلمات التى تعبر بشكل أفضل عن حضارتنا العظيمة الميكانيكية السريعة.

تصاعد الحوار. شارك فيه معجبون كثيرون. والكل يكيل الإطراء والثناء للشاعر الأصيل الذى يستضيفنا. ودللت الأمثلة على أن الشاعر اليونانى "بلامس" - نظير "كفافى" ومنافسه - يذكر "فيكتور هوجو" لغزارة لغته، و"لامارتين" لنزعته العاطفية، و "مالاكاسيس" فهو مزيج من "دو موسييه" و" سيللى برودهوم"، أما "بورفيراس"

أصغر الشعراء اليونانيين فهو تلخيص لكل من "بودلير" و "فيرلان"، وتذكرنا قصائد "جريباس" الشعرية بقصائد "جوزييه ماريا دو هرديا".

بدا رب المنزل متأثرا وقدم لى مزة الجبن من جديد، وشرح لى رغبته فى أن ينحت بشكل أدبى اللغة اليونانية الشعبية فى أبيات شعره الحر، تلك اللغة التى يُبجّلها عالم اللغويات الشهير "بسشاريس".

إنها تتمتع بحيوية قوية فى مظهرها الخارجى وذلك فى مقابل القواعد الكلاسيكية التقليدية التى بسبب تمسكها بالماضى بشكل صارم آل مصيرها إلى الفناء على أرفف المكتبات فحسب.

اللغة الشعبية اليونانية لغة ديناميكية، قادرة على استيعاب كل المفردات الأجنبية الضرورية. خاصة المفردات الإيطالية.

أنشد "كفافى" بعض أبيات الشعر حيث تندمج وتتناغم كالموسيقى مفردات إيطالية كمستحدثات لازمة على اللغة مثل: *باب - قبعة - جوارب - قفاز - مهنة*، وأثبت لى كيف تشذ كلمات تساويها إذا كانت بلغات أخرى كالإنجليزية أو الفرنسية أو الإسبانية.

تحدثنا عن النزعة الإبسنية عند كاتبى المسرح "إ" و "نيرفانا"، أما "سبيروميلاس" فهو ينتهج تقريبا فى "المشهد الحر" نهج حركة "المستقبلية"، حيث قامت فرقة "ماريا كوتوبلوس" - والتى يطلقون عليها "لادوس دى أتينا" - بتمثيل أعمال مسرح الطليعة الفرنسى باقتدار، وذلك بشهادة صحيفة "ليلفترون فيما" وهى عظمى الصحف اليومية اليونانية.

وعندما قرر "كفافى" أخيراً، بعد أن رجوناه جميعا، أن يلقى على مسامعنا إحدى قصائده الشعرية التى لم تنشر بعد، تطوع "كترارو" بشرح عنوانها الغامض: "الإله يجفو ويتخلى عن أنطونيو".

فى الواقع إنه عند قراءة "بلوتارك" نجد أنه فى الوقت الذى استسلم فيه أنطونيو لشهواته مع كليوباترة فى الإسكندرية، تناهى إلى السمع ذات ليلة كورس شجى من

أصوات الماندولين والمزمار وكان يبتعد فى اتجاه البحر. هرع الجميع إلى شاطئ المرفأ القديم وهم منجذبون ولكنهم لم يروا شيئا. كان "ديونيزو" حامى "أنطونيو" قد تخلى عنه.

ألقى "كفافى" أبيات شعره الحر بتؤدة يصحبها إيماء يزخرف بدقة المكان.

وبين حين وآخر كانت يده تتهاوى تحت وطأة ثقل موسيقى الكلمات الواهن، بينما كان "كترارو" يترجم الشعر.

استأذنتُ من الشاعر بعد مرور ساعة، وهرعتُ فى سيارة لأستمتع بالظلال العطرة لأشجار الطلح فى حديقة "أنطونيادس".

بدر مُكتمل. بلابل. وصف من أشجار "الكاميروس" العالية يسكب لبنًا أثيريا فى الفضاء الخلاب. من حين إلى آخر أسمع صخب أصوات و ضجيج ودوى حاد: إنهم يهدمون الفيلا القديمة المفعمة بالذكريات لتشييد أخرى غاية فى الحداثة لإقامة الملوك الأوروبيين عند زيارتهم للبلاد.

وأسمع دوىّ عربات الكاروه المُكتظة بالرخام القديم. وفى بعض الأحيان يستدعى انهيار الأنقاض الجنائزى صوت القنابل الماجن.

وتمتلئ ترعة المحمودية بسائل فضىّ من الحنين كأبيات الشعر الحديث العتيق لشاعر الإسكندرية اليونانى: قسطنطينو كفافى.

(١٨)

الموت المقهور وحركة "مع الموتى"

أحاول أن أحدد المظاهر النفسية لمصر القديمة والحديثة من خلال دراسة شعبها عندما يتحرك غير مكترث بين المبانى المعمارية والتماثيل والمدافن المقدسة الثمينة.

كان دليلى فى متحف الإسكندرية الشاعر "نيلسون موربورجو" رائد الحركة المستقبلية فى مصر. إننا بمفردنا مع الماضى وسط السكون الذى يعبق برائحة الصوف الحار والنطرون والأعشاب العطرية. يحطم الصمت دوىّ أصوات وضحكات ووقع أقدام مضطربة. إنها مجموعة من التلميذات: عيون وملابس وأوشحة وخمارات سوداء، ولكن راحت الأيادى البيضاء كزهرة الكاميليا تتحسس وتتحسس بخبث ظهر الثور أبيس الضخم الذى يقدسونه كرمز للخصوبة والنماء. و كما يشرب الناس ماء النيل بروحانية، كانت كل فتاة تتظاهر أو تعتقد حقا فى مقدرة تلك الحجارة المقدسة على أن تهب الحياة.

كان الإغريق والرومان يهتمون قليلا بتلك المشكلة وكانوا عادة يهجرون الأطفال، أما قدماء المصريين فكانوا على العكس منهم يزدرون ويكرهون النساء العاقرات. لقد استقر بالفعل فى الأذهان أن الاحتكاك بأبى الهول يمنح النساء عجينة الخصوبة المضمونة. كان حب الحياة هذا يمزق الموت نفسه أسفل ثقل المدافن الصخرية الحصينة.

كان كبرياء الملوك لايزال يحكم شعبا من المومياوات أو حشدا من الحياة المُتجمدة فى كهوف الأهرامات الفسيحة.

وبرغبة إنسانية عارمة فى التآزر بقوة الحب والمؤاخاة وقبل كل ذلك برغبة الاستخفاف بالموت تم تشكيل جمعيات "مع الموتى"!. كانوا فى غاية السعادة لأنهم استمتعوا بحياة كاملة معا وكانوا يرغبون فى أن تمتد داخل مملكة الموت المهزوم.

قبل تخليد الجسد كانوا يقمطونه فى لفائف يملؤها الملح وكانوا يمدونه بأنواع من اللحوم المُنتقاة بناء على طبيعتها القابلة للصب.

كانوا يقدسون ويرفعون بالفعل إلى مصاف الآلهة الثور الدءوب الصالح للأكل، والتمساح المتوحش الذى يخشاه الناس.

(١٩)

برج حمام من أحذية القافلة

تسلطت علىّ فكرة الخلود وصاحبتنى بينما كنتُ أقوم بزيارة جامعة "الأزهر". تحيط الأروقة فناء كبيرا. وفى نهايتها المسجد الذى يتوه فى غبار الشمس العالية، وقبة ومئذنة تمنحان الحصير الموجود أسفله ظلالا نضرة. جو من حشود النحل أسفل أقواس الأروقة المتعددة. حلقات علم من الدارسين زهاء العشرين.

كل مجموعة تضم حوالى ثلاثين تلميذا. من كل الأعمار. طرابيش وعمائم حمراء وبيضاء.

ينصت التلاميذ وهم جالسون القرفصاء حول مقعد المعلم الذى يجلس عليه مربع الساقين، ويتحدث وهو يهز جذعه فى حركة تماوجية. يحاكى التلاميذ اهتزازه وهم مشدوهون فى حالة روحانية إثر صوته الأنفى الرخيم وهو يفسر القرآن الخالد. حلقات متحدة المركز من التهامس والصمت حول الحجر الرزين الذى يتساقط من آن إلى آخر.

تركد رائحة الحلاوة فى المكان، وهى لون من الطعام المُليّن لتلك الأجساد التى تعشق استمرارية بذل الجهد المنتظم وتجهل روح المغامرة.

عند الخروج من جامعة "الأزهر" نلاحظ وجود ما يشبه برج حمام خشبى، وهو يحوى فى عيونه أحذية ومداسات التلاميذ.

يخضب يصبغ تراب الحنين كل شوارع أفريقيا وآسيا ويتجاور مع المحراب المقدس الكبير القريب المُتجه إلى "مكة". إنها دراما مُختزلة لأمور بكماء تلخص الإسلام الهائل.

(٢٠)

مدافع القلعة الإنجليزية

عندما أرفع رأسى فى السيارة السريعة، أرى القلعة ذات الأبراج وبلونها الصحراوى تحاول أن تخترق بأطراف مآذنها قصص طنين الطيارين الإنجليز المُضجر، الذين يوجهون باستمرار مدافعهم المستعدة نحو صمت الحشود المسلمة الحزين.

يبدو محفورا فى الأذهان موكب الإبل الموغل فى القدم، وهو يمر ببطء متأرجحا وينقل الحجارة لتشييد مبانى الأوربيين.

عندما سمعنا نفير السيارة هرعنا بين المساجد المثلومة، وحركت سرعتنا بالكاد حبرة النساء العربيات السوداء اللواتى يتكدسن أمام السجن، ويتجلدن فى انتظار ميعاد زيارة أحبائهن الذين سجنهم الأجنبى.

النيل. تنعس الدهبيات أو المنازل الطافية بطول النهر وهى ثابتة وقد لوحتها أشعة الشمس أسفل النخيل الذى أسكره النعاس . تلك المعوجة. وهذا النخيل المُتعانق كى لا يسقط. حديقة "الجزيرة" الجديدة – وهى مسطح هندسى أخضر مستقبلى – تكعيبى من الأشجار التى تم قصها بأشكال كروية مخروطية وتكعيبية – تحمل فى مجراها الفيروزى المصقول كل النضارة التى تحلم بها الصحراء المُتحركة.

زرقة لامعة خلابة لسماء صافية. ما الذى تأمل فى حصاده تلك الأشرعة العالية المقوسة بين النخيل الشارد وشجر السالستين المُتضرع؟

هل تستطيع القومية المصرية قريبا أن تحقق حلم الاستقلال التام وتنضم إلى عصبة الأمم المتحدة كحليف حر وصديق لإنجلترا سيدة أعالى النيل وضفة قناة السويس؟

يالها من متناقضات!

ولكن ألا ينسجم عواء ابن آوى الذى يغيش فى الصحراء وخفر المنازل مع الخلود الليلى للنيل المتدفق ؟

(٢١)

فن المسرح بلا مسرح

وبالمثل فإن هذا التباين النابض بالحياة للصور والأفكار والألوان والإيقاعات والأصوات والمشاعر كان يتحتم منذ فترة أن يتجمع بشكل أدبى فوق خشبة المسرح ويكون مسرحا مصريا. ولكن هذا لم يحدث بعد. إنه بالكاد يبزغ.

بالإضافة إلى زخم المسرح الأوربى المُترجم إلى العربية، توجد أعمال مسرحية ليوسف وهبى ومحمد تيمور وأنطوان يزبك إبراهيم .

فى مارس عام ١٩٢٣م أسس يوسف وهبى فرقة رمسيس التى جال بها كلاً من مصر وسوريا وتونس والجزائر بنجاح، وهو رجل رأسمالى ماهر و مدير فرقة مسرحية وممثل من الطراز الأول.

أما المسرح التاريخى فله شاعره: إنه شوقى الشاعر المعروف الذى كتب مسرحية "كيلوباترة" الشهيرة والممثلة فاطمة رشدى. هذه الفنانة الشابة الجميلة الذكية الحساسة التى تمنح بولع للجمهور العربى - بالإضافة إلى تموجات نحيبها الواهن على جثمان أنطونيو - ظهرا عاريا رشيقا شهوانيا. ثورة حقيقية فى العادات الإسلامية.

أفضل الممثلين هم زكى طليمات وعزيز عيد ويوسف وهبى وجورج عيد. ويتألق بين الجميع نجيب الريحانى وهو الذى أبدع مشاهد متفردة، ورمزى وعبد الرحمن رشدى وإبراهيم المصرى ومحمود كامل وإسماعيل صبرى وعلى لبيب.

ويحاول هؤلاء الممثلون خلق مسرح قومى خالص باللهجة المصرية مُبتعدين عن اللغة العربية الفصحى.

كما أن هناك جهوداً مخطئة مثل محاولات زكى طليمات الذى يحلم بمسرح تاريخى يقدمه للجمهور الباريسى وكذلك تقديم نمط على شاكلة شخصية "كشكش بيه" الذى يجسد السذاجة الشعبية الساخرة.

وبنفس الصيغة الكاريكاتيرية ظهر الممثل والمؤلف على الكسار.

(٢٢)

تزامن إفريقى لطيار زنجى

أين أنا؟ فى أعالى الصعيد؟ داخل تونس؟ لا... فى الواقع إن هذه السيارة تقطع السهل التونسى، ولكنها تفصل فى نفس الوقت أسوان عن النيل الذى يحمل على صفحته جزيرة "فيلة" التى تشبه ثمرة أناناس ضخمة! وأرى الآن أشجار الرمان والموز والنخيل وقد ازدادت كثافة جذوعها بسرعة وأوراقها الملفوفة كالخيط حول نفسها أسفل العجلات التى تنهب الطريق مقيدة وطليقة فى ذات الوقت مُسرعة فى السهل التونسى الشاسع وتخرجه عن سكونه بشكل مدهش. تقذف بضراوة الرياح المُسيطرة فى وجهى تأنيبا عنيفا اعتراضا على سرعتنا، حيث وصل ناقل السرعة إلى الدرجة الرابعة. انطلقت مزارع الكروم متجهة نحو قوس الأفق بألوانها الصفراء والخضراء وتبدو كأنها تحمل على ذروتها مثلث طموح لجمل يجر خلفه بمهابة محراث صغير يحاكى لعبة أطفال مُحطمة. كما يرسم الآن بخطمه السامق قبة السماء. سياج كثيف من نبات لم يخضر بعد.

إنه يشبه أسلاكا شائكة يعلوها الصدأ يحمى من هجمات قرصنة الرياح القرى التى يحيا فيها حياة بُنية حافلة كل من الجاموس والحمير والكلاب والديكة وهم غارقون فى الوحل.

ها هو السهل يتمخض أمامنا، بعد أن انتفخ رويدا رويدا، عن مدينة "زغوان" البيضاء التى تحيطها أسوار رشيقة طليقة مُنمقة. قباب بيضاوية بخطوط متعامدة تشبه فاكهة صافية غنية بالعصارة تتناوب برقة مع أبراج المآذن المُربعة الصارمة التى تثقلها الحرب أكثر من الصلاة. وعبر الشرفات الصغيرة تبدو المدينة لى وكأنها معرض

هائل لعيّنات من العلب الكبيرة الفارغة وأغطيتها الثقيلة المقلوبة. شرفات فضية مُتربة. أفنية ضاربة إلى الزرقة. أزقة مخملية بلون النيل.

أهيمن على الهندسة السافرة لأحشاء الصحراء التى تتنوع بين مكعبات وكرويات ومثلثات وأشكال مخروطية للمثانة والعضلات والأعصاب المُتكلسة. يندفع وميض عال من الذهب الأخضر فوق فتحات الأسوار التى يبدو منها تدفق اللبن الأزرق الساخن. أفعم الجو المُستعر أقدامى وظهرى بالرصاص والصوف الحار بينما أتابع ببطء السير فى أعماق أتون محرقة الزقاق الملتوى. تتقدم صرة سوداء من القماش. لعلها امرأة. لمحتنى بالتأكيد بينما تمر فى التراب دون ضجيج عبر ثقب صغير لستارها الدامس.

وعلى اليسار - وبشكل مسرحى- كومة من عربى أو عرب يتدثرون بجلابيب من جلد الماعز ويداهمهم النعاس وهم يقومون بالطهى: عظام اللحم المسلوق، والكسكسى، والفول، والتجعّد، والشعر، والعرق، والروث. تم تقديم الطعام على أكمل وجه فى أحد تجاويف الأسوار الساحرة.

وتقذف فوهة بركان الشمس المقلوبة بحمم قاتلة تتبعنى داخل أحد المقاهى الضيقة: فبدلا من الانتعاش المنشود استقبل منخارى روائح كريهة وذباب وغثيان من العفونة والزيت الزنخ والقرفة والفانيليا والطلح والخروب والحمص والعرق والبخور والنشادر والينسون والياسمين وقناة المجارى.

ولحسن الحظ، فإن قدحًا من الأعشاب شحم عقلى المتوقد بين شطف الأقداح وصوت تونسى - فرنسى يقص ما يلى: "تدور أحداث الجزء الأول من الفيلم الذى أقوم بتصويره فى الدهبية على صفحة النيل الدهنى، والجزء الثانى بين جبلين من بالات القطن الذى يتلظى تحت أشعة شمس أغسطس الحارقة، والجزء الثالث فى القسطنطينية. إنها مدينة عريقة وصاخبة. لدينا عمل كثير من أجل الصوت الرنان!"

كان يوقظنا كل صباح صخب مختبط من الأبقار والديكة والحمير والماعز والثيران. فندق كبير على قمة جبل أعلى نُزل البدو الفقيرة التى تضم أفنيتها الواسعة

تبنا وقمامة وإبلا وأوزا وحيوانات التيس وحماما. وتسيطر طيور اللقلق الأنيقة على طوب الأسطح المنخفضة، الأحمر الذى يبدو وكأنه يمضغ ويعتصر ركب الحيوانات والفلاحين والرجال ذوى الأسمال البالية عند مرورهم بلامبالاة. المشهد رائع وينبئ عن كل شيء. سنحوذ على تأثير سينمائى قوى مع هذا الحشد من المنازل الفقيرة المعوجة المُلطخة بالزرقة والتى تنحرف يسارا حتى إن الجسر المستدير الذى يعلو الأقواس الرقيقة يجعلها تتماسك بالكاد.

وسيدور المشهد الرئيسى داخل سيارة تنطلق بأقصى سرعة فوق هذا الجسر الذى يتجاوز وادى "روميل" العميق مُبددة السحب البنفسجية المُتراخية والمتصاعدة من المنازل التى لونتها الفرشاة باللون الأزرق".

يغمغم طيّار زنجى قائلا: "هنا يموت المرء". زغوان هى مدينة الموت البطىء فى الجير الحىّ! سئمت من الطهى فى الزيت كالحلوى المقلية. لابد من الطيران تجاه الواحات. سافرتُ منذ فجر الأمس بطائرتى السياحية الصغيرة من القاهرة. حلّقتُ فوق طرابلس وتونس واتجهتُ صوب "القنطرة". يا لها من إيماءات تحدث فى الجو! موجتان هائلتان من غبار الجرانيت والرمل تأرجحتا أمامى فى السماء فى أثناء نصف ساعة من التحليق، يبدو بعدها أنهما حولا سريعا مجراهما المضطرب إلى حجارة. كانتا تحاولان منعى من الولوج فى الصحراء! ولكن هرقل اخترق من أجلى –بالتأكيد من أجلى – هذا الحائط بركلة قدمه الأسطورية. عبرتُ المنفذ على ارتفاع مائة متر بينما كانت تحتشد فيه عشرة آلاف نخلة، مما أنعش سريعا حركة سعفهم الدوّارة وهى تتوق إلى الهروب من رياح "سيمون" الحارة وتتشبث كلتا يديها بخيط مياه الوادى الأبوى الذى يرشدها...

" وفى طريقى نحو "بسكرة" حلقت فوق مواكب عظيمة من المزارعين من البدو الذين يذهبون للعمل فى أرض الآخرين ليتمكنوا بعد ذلك من العمل فى أراضيهم. تماوج الإبل المُثقلة بالخيام وأوانى الطهى والأطفال. وعلى سنام أعلى الإبل تهتز النساء الثريات أسفل مظلات من الحرير القرمزى: تحمل كل منهن فى السرج بجانبها دجاجتها البيضاء المُفضلة أو كلبها الأبيض الأزغب الأمين النائم. وتماثيل صغيرة من البرونز الأسود فوق قواعد فخمة تسير. تظهر بين طيّات الصحراء قطعان

من النعاج البيضاء موسومة رءوسها جميعا باللون الأحمر. وبحثا دائما عن مكان بارد وجدتُ أخيرا وادى "بوسعادة" ذى البساتين الزمردية الذى يقع بين أسوار ضخمة من الجير البرتقالى. هبطتُ بالطائرة أمام فندق "القايض" وقت غروب تلفه الرمال الوردية الحريرية. كان الفندق يكتظ بالسائحين، وفى الواحة لم أجد راحة النوم أسفل الخيمة العربية البنية المُخططة باللون القرمزى، بسبب عدم وجود فتاة جزائرية جميلة بجوارى.

دون وجود أى جميلة جزائرية بجوارنا. تتكئ النجوم الضخمة والهلال بثقلهم على قمة النخيل. ويتصارع النعاس ضد عواء الكلاب الشرس وطنين الحشرات والطيور الليلية التى تتألم وتقرص لحاء الأشجار. ما إن غاب القمر خلف الكثبان الرملية إلا واقتحمت ملذات الجنة الواحة بنسيم شجى يحرك سعف النخيل الكثيف الذى ينهمك كله فى تقبيل بعضه بعضًا ويعاود التقبيل بشهوانية وهو ينشر حفيفا موسيقيا مُتعددا رخيما وتساقط أمطار وقرقعة وهمية تنتشر بسرعة. أهو تزحلق بحرى ما أراه؟ أهى أمطار صامتة وبرد؟ تزحلق بحرى؟ على الرغم من المشقة التى عانيتها فإن قلبى الذى ترقق سهر وكأنه الجزيرة الوحيدة لهذا المحيط اللامتناهى من الأوراق السعيدة. رحلتُ مجددا مُحلقا بين هتاف وأشعة الشمس الحادة المائلة كعش طيور حمراء. وعلى شفاه معدن الطائرة كان الفجر بمثابة "أيس كريم" بالفراولة والفانيليا.

منحتنى قصة الطيار الزنجى رغبة عارمة فى الخروج إلى الفضاء. وعلى العكس من ذلك كانت مدينة زغوان منغلقة بسبب الجو الخانق أكثر من أى وقت مضى: وقادنى زقاق إلى خارج الأسوار. فى خضرة المراعى يرقد خليط من قطعان المقابر والنعاج. موسيقى شجية وحجارة و دماء ونخاع وعظام ووبر أغنام. توافق كامل ومُمتد. إنه الخلود.

يحث سير السيارة التى تقلنى خارج زغوان بإيقاعها الرخو على الانطلاق المحموم الداعر لحزام أسوار المدينة المزدانة. وفجأة يختفى خلف الأسوار محراب المنازل رباعى الشكل، فالمنازل تشتاق لتنحى طلقات النجوم المتقدة وأشعتها الفضية.

في المساء الصافى المتفائل، وتحت الأسوار البعيدة تتساقط عثرة عطرة لمجموعة مقابر تشبه الياسمين وزهور العسل انتزعتها الرياح فى حديقة بلون السماء.

مقابر أخرى مُبعثرة. إنها تبدو لى وكأنها منتجات ألبان نوق صافٍ مُعرض لنسيم الليل من أجل الحفاظ عليه بصورة أفضل.

المؤلف فى سطور:

فيليبو مارينتى

ولد فى ٢٢ ديسمبر ١٨٧٦م وتوفى فى ٢ ديسمبر ١٩٩٤م، كان شاعرا وأديبا ورئيس تحرير وهو من أوجه الحركة المستقبلية (Futurismo) فى الفن والموسيقى والأدب أوائل القرن العشرين وتميزت بالدعوة إلى طرح التقليد جانبا ومحاولة التعبير عن الطاقة الدينامية المميزة لحياتنا المعاصر.

ولد إيميليو كارلو مارينتى لأسرة إيطالية فى الإسكندرية بمصر، حيث تربى ودرس فيها، حبه للأدب تزامن مع دراسته، فى سن السابعة عشر أنشأ مجلته المدرسية الأولى "ورق البردى Payprus "، هددته المدرسة اليسوعية بالفصل منها لأنه جلب رواية اعتبرتها "فاضحة" لإيميل زولا.

أرسلته أسرته إلى باريس، فرنسا، حيث تخرج وحصل على البكالوريوس فى ١٨٩٣م، انضم إلى كلية القانون بجامعة بافيا مع شقيقه الأكبر "ليون".

المترجمة فى سطور:

مها محمد عبد العزيز

مدرس اللغويات والترجمة بقسم اللغة الإيطالية - كلية الألسن جامعة عين شمس.

المراجعة فى سطور:

سهيمة سليم صالح

أستاذ اللغويات والترجمة بقسم اللغة الإيطالية - كلية الألسن جامعة عين شمس.

التصحيح اللغوى: رجب عبد الوهاب
الإشـراف الفنـى: حســـــن كامـــل